

## مساهمة المرأة العباسية في الأعمال الخيرية

أسماء عمارة  
جامعة صفاقس

### مقدمة

إن ما حفزني على طرح موضوع "مساهمة المرأة العباسية في الأعمال الخيرية" ليست جدّته، بقدر ما ورد في البحوث والدراسات التي طرقت موضوع المرأة العباسية من تركيز على صورة نمطية للمرأة كزوجة أو سرية أو مغنية أو عشيقة إلخ...، وفي أقصى الحالات التطرق إلى دور المرأة في الحكم. فالنظر إلى حياة المرأة العباسية من زاوية غير الزاوية التي نُظر منها إليها إلى حدّ الآن، قد يوصلنا إلى الوقوف على أدوار أخرى لها قد تكون أهم مما ضبطته النظرات الأحادية أو المتأثرة بالنظرة السائدة في المجتمع الذكوري للمرأة.

وبالتالي تبدو أهمية هذا الموضوع في الدور الذي لعبته المرأة في العصر العباسي في مجال الأعمال الخيرية، سواء أكانت هذه المرأة حرة أم أمة. ومما لا شك فيه أن دور المرأة في العصر العباسي قد تأثر بالظروف السياسية والأمنية التي مرّت بها الخلافة العباسية، والتي مهّدت لبعض الشخصيات من النساء من البروز والتأثير في مجرى الأحداث السياسية والاجتماعية.

فقد شهد أواخر القرن الماضي والقرن الحالي ظهور أبحاث في التاريخ العباسي شملت المرأة، إلا أنها خلت من أي دراسة تاريخية متكاملة عن دورها في العصر العباسي. فلم تُخصّص المرأة العباسية بمؤلف، إذا استثنينا كتاب **سيّدات البلاط العباسي** لمصطفى جواد<sup>1</sup>. وقَلّما خصّصت المرأة العباسية بفصل في الدراسات الأخرى، بل وقع التطرق إليها ضمن محاور اهتمامات مؤلفيها، وتبقى دراسة كندي أهم ما كتب في هذا المجال، فقد خصّص "الحرم" بفصل كامل في كتابه، ركّز فيه على دور المرأة السياسي والاقتصادي في القصر العباسي،

<sup>1</sup> مصطفى جواد، **سيّدات البلاط العباسي**، بيروت، 1950.

مبيناً أنه رغم ما قيل عن دور النساء في تدهور سلطة الخلفاء في بداية القرن العاشر ميلادي، وذلك بحكم سيطرتهنّ على الحكم وإثرائهنّ، فقد ساهمن في إنقاذ الخلافة بأموالهنّ<sup>1</sup>. وفيما عدا ذلك لا نعثر في أهم الدراسات التاريخية على ما يشفي الغليل بل وحتى على النزر القليل الذي يُفيد.

أما الدراسات الأدبية التي اهتمت بالمرأة العباسية سواء منها التي كتبها عرب أو مستشرقون، فالتأمل فيها يلاحظ أن معظمها ركّز على قضايا محدّدة، كقضية العشق والغرام، والحب والغناء، والأدب والشعر، من ذلك مثلاً ما كتبه عبد الله شيخ موسى عن "العشق" وعن "صورة الجارية المغنية في العصر العباسي"<sup>2</sup>. كما درس كل من رينا دروري وجادي أجازي ظاهرة الحب في البلاط العباسي، والتي ميّزت أساساً فئة الجوّاري، مبينين أن العلاقات بالنسبة للنخبة الحاكمة العباسية لم تكن لتنشأ عن طريق الانتماء إلى نسب معين، وإنما عن طريق تقاسم نوع من الظرف الأدبي<sup>3</sup>.

إن هذه الدراسات بالرغم من أهميتها، قد ركّزت على سيّدات القصر الشهيرات وذلك في إطار الحديث عن علاقتهنّ بالخلفاء، كما أولت عناية فائقة للجوّاري على حساب الحرائر، ويبدو أنّ صورة المرأة المتأنتية من دائرة الأدب قد أثّرت في ذهن هؤلاء الباحثين وجعلتهم لا يُلمون بالأبعاد الاجتماعية الأخرى.

فالمرأة لم تكن فقط زوجة، أو سرية، أو عشيقة أو مغنية، وإنما لعبت المرأة العباسية دوراً هاماً في الحياة العامة يمكن لنا أن نتبينه من خلال إطلاعنا على كتب الجغرافيا والرحلة التي تبقى الأهم في هذا المجال، ويمكن أن نذكر في هذا السياق كتاب **صورة الأرض** لابن حوقل و**رحلة ابن جبير** و**معجم البلدان** لياقوت الحموي، اللذين انفردوا بذكر منشآت لنساء عباسيات أوقفت لأعمال الخير، وذلك في نطاق تعريفهم بالمناطق الجغرافية، وهو ما لفت انتباهنا إلى أدوار أخرى للمرأة العباسية، تتجاوز ما ورد ذكره في كتب الأدب. هذا دون أن نغفل كذلك المصادر التاريخية ولأسيما **مروج الذهب** للمسعودي، و**العيون والحدائق** لمؤرخ مجهول، و**النجوم الزاهرة** لابن تغري بردي ولو أنه متأخر، حيث أنّهم

<sup>1</sup> Hugh N. KENNEDY, *The Court of the Caliphs, The Rise and Fall of Islam's Greatest Dynasty*, London, 2004.

<sup>2</sup> Abdallah CHEIKH-MOUSSA, « Figures de l'esclave chanteuse à l'époque 'abbaside », dans Henri BRESCH (éd.), *Figures de l'esclave au Moyen- Age et dans le monde moderne*, Paris-Québec, L'Harmattan, 1996, pp. 31-76.

<sup>3</sup> Gadi ALGAZI et Rina DRORY, « L'amour à la cour des Abbassides. Un code de compétence sociale », dans *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, 55-6, 2000, pp. 1255-1288.

أمَدونا بمعلومات هامة عن ممتلكات النساء العباسيات ونفقاتهنّ من خلال حديثهم عن الخلفاء العباسيين، متتبعين الترتيب الزمني للأحداث. بالإضافة إلى كتب التراجم، وأهمها كتاب **وفيات الأعيان** لابن خلكان الذي أفادنا بمعلومات عن بعض السيّدات البارزات في العصر العباسي، استطعنا من خلالها التعرف على منشأتهنّ والأموال التي أنفقنها على هذه المنشآت مثل زبيدة. كما خصّص القاضي الرشيد في كتابه **الدخائر والتحف** - والذي نستطيع أن نصنّفه ضمن ما يمكن أن نسميه بالمصادر الانثروبولوجية - جزءاً لثروات النساء فقط، ومن ثمة أمَدنا بمعلومات هامة عن ممتلكاتهنّ وانجازاتهنّ.

فقد كشفت لنا هذه المصادر عن دور هام للمرأة العباسية تغافلت عنه الدراسات الحديثة وهو الإنفاق على الأعمال الخيرية. فقد ساهمت المرأة في العصر العباسي بقسط واسع في مجال المنشآت والإنفاق عليها، مثل حفر العيون والآبار واستصلاح الحياض وتسهيل الطرقات، وإنشاء الاستراحات للحجاج، وبناء المساجد، بالإضافة إلى الصدقات في الحج، وتزويج الأيتام، إلخ... لكن من المعلوم أنّ المستوى المادي للمرأة في العصر العباسي لم يكن واحداً، وإنما كان متفاوتاً حسب الطبقة التي تنتمي إليها، وهو ما حتم علينا وقبل الخوض في مجال المنشآت والصدقات، البحث عن النساء العباسيات صاحبات الأعمال الخيرية.

## I - النساء العباسيات صاحبات الأعمال الخيرية

ما هي هويتهنّ وأسمائهنّ، وانتماءتهنّ القبلية أو الجغرافية، وحالتهنّ الاجتماعية ومكانتهنّ المادية؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في بداية هذا البحث.

فقد لاحظنا من خلال المصادر التي أطلعنا عليها أن النساء العباسيات صاحبات الأعمال الخيرية هنّ أساساً أمهات الخلفاء العباسيين وزوجاتهم وأمّهات أولادهم اللّاتي أحرزن على مكانة هامة في البلاط العباسي: مثل الخيزران، زبيدة، شجاع، حُبَيْبِيَّة، وشغب، وفي حالات أخرى جواريهم مثل هيلانة وخالصة وأحياناً بناتهم مثل العباسة بنت المهدي أو بنات أحد قادتهم أو ولاتهم مثل العباسة بنت أحمد بن طولون<sup>1</sup>، أي بصفة عامة سيّدات القصور، اللّاتي تطلق عليهن المصادر كلمة "حرم"<sup>2</sup>.

وبالتالي ينتمي جُلّ هؤلاء إلى طبقة الخاصة، التي تتكون من عدّة فئات اجتماعية يجمع بينها وحدة موقعها ومصالحها الاقتصادية والسياسية، وحجمها

<sup>1</sup> ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، بيروت، 1971، ج 2، ص 250.

<sup>2</sup> أبو هلال الصّابي، **رسوم دار الخلافة**، بيروت، 1986، ص 22-87.

الصغير بالنسبة لطبقة العامة التي تمثل الجزء الأكبر من السكان. لذلك سميت "العامة" لأنها أعم وأكثر<sup>1</sup>. فمن خلال المصادر التي اطلعنا عليها لم يكن لنساء العامة دور في المنشآت التي اقتترنت أسماؤها ببعض النساء والتي كانت فقط حكرا على سيدات القصور. فقد كنّ على درجة كبيرة من الثراء، وكانت لهنّ أملاكهنّ الخاصة، وقد تنوعت هذه الأملاك، من الأموال والجواهر والثياب والطيب والأثاث إلى الملكيات العقارية المتمثلة في الضياع<sup>2</sup>. فقد كنّ يملكن العديد من الضياع، وكنّ يتلقينّ منها أرباحا هامة، وأصبح لديهنّ شيئا فشيئا قاعدة مالية ضخمة ناتجة عن ذلك.

كما تبينّ لنا أنه بالإضافة إلى الأموال والضياع، كان نساء الخلفاء العباسيين يملكن عددا من الرقيق المتمثل في الجوّاري والإماء اللّاتي يقمن بقضاء الحوائج لسيداتهنّ وقد ذكرت لنا المصادر أسماء البعض منهنّ مثل خالصة جارية الخيزران، وعتبة جارية ريطة ابنة أبي العباس السفاح، وسكّر وتركبة جاريّتي أم جعفر، ودقاق جارية العباسة الخ...<sup>3</sup>. واتخذت نساء الحرم العباسي من الرقيق مكسبا لهنّ، وكنّ يرسلن من ينوب عنهنّ في شرائهنّ، وكانت ريطة ابنة أبي العباس السفاح تبعث عتبة جاريّتها في شراء الرقيق لها<sup>4</sup>.

إضافة إلى الرقيق، فإن نساء العباسيين كسبن الدواب، وتشير المصادر إلى أن زبيدة أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوّاري، يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها ويستعملونها في إرسال رسائلها وكتبها<sup>5</sup>.

واستعانّت سيّدات القصور بالكتاب والوكلاء في إدارة أعمالهنّ. فأما الكاتب فمهمته النظر في الشؤون المالية. وبلغ من كثرة أملاك الخيزران أنه كان لديها كاتب خاص يطلعها على ما يتعلق بها من الأمور المالية وهو عمر بن مهراّن. كما كانت حمدونة بنت الرشيد تملك أموالا كثيرة، وكانت لديها ضياع عديدة، حتى أنها عينت لها كاتباً يشرف على شؤونها المالية<sup>6</sup>. وكانت أم الخليفة المستعين تملك أموالا وافرة جمععتها من إطلاق ولدها يدها في أموال الدولة حتى

<sup>1</sup> نجيب أبو طالب، الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، دار المعارف، سوسة، 1990، ص 68.

<sup>2</sup> القاضي الرشيد، الذخائر والتحف، الكويت، 1959، ص 235-238.

<sup>3</sup> الجاحظ، رسائل الجاحظ، القاهرة، 1977، ج 2، ص 156.

<sup>4</sup> المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، 1983، ج 3، ص 328. وكان يوجد في بغداد سوق خاص لبيع الرقيق يعرف بـ"دار الرقيق". انظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 420.

<sup>5</sup> المسعودي، المصدر المذكور، ج 4، ص 317.

<sup>6</sup> الجهشيارى، الوزراء والكتاب، القاهرة، 1938، ص 218 و234.

أنه كان لا يمنعها عن شيء تريده، وكل ما يرد إلى بيت المال كان في يدها ويد مساعديها من الأتراك مثل أوتامش وشاهك الخادم. وكان لها كاتب خاص يتولى إدارة أملاكها وشؤونها المالية، يدعى سلمة بن سعيد النصراني<sup>1</sup>. وسيطرت السيّدة شغب أم الخليفة على شؤون الحكم، وملكت الكثير من الضياع، وجنت منها أرباحا هامة. واستعملت هي أيضا كاتبا خاصا يدعى أبو يوسف عبد الرحمان بن محمد، كان يتولى الإشراف على أموالها<sup>2</sup>.

وأما الوكيل فيرتبط عمله مباشرة بالضياع. جعلت عليّة بنت المهدي مثلا وكيلا خاصا بها يدعى سباع لإدارة ضياعها الكثيرة وكانت تحاسبه على أموالها، وتفطنت مرة أنه سرقها فأمرت بحبسه<sup>3</sup>. كما كانت زبيدة زوجة هارون الرشيد كثيرة الضياع، وعينت أيضا على رأسها وكيلا خاصا أو وكلاء. وعهدت بمحاسبتهم لكاتبها داود، حتى أنه حبس أحد الوكلاء لحساب عن ضياع وجبت عليه<sup>4</sup>. ويبدّل ذلك على أن الكاتب يحتل مرتبة أعلى من الوكيل.

نلاحظ من خلال هذه الامثلة أن سيّدات القصر، وإن كنّ لا يتنقلن في الضياع والبلدان، إلا أنّهنّ كنّ يشرفن على أمورهنّ ومصالحهنّ المالية. ولا تشير المصادر إلى أنّهنّ كنّ فاشلات في ذلك بل الواضح أنّهنّ كنّ صاحبات شخصيات قوية وعلى دراية بأمورهنّ، يعرفن من يخترن لإدارة ممتلكاتهنّ ولم يكنّ ضحية لتلاعب بعض الكتاب أو الوكلاء. كما تتّضح لنا صورة الثراء والترّف الذي عاشته هؤلاء السيّدات في ظلّ بلاط الخلفاء، إذ أثّرين من أموال ضياعهنّ، وأصبحن يكتسبن قاعدة مالية هامة على شاكلة الخلفاء. كما تمتعن بحريّة التصرف في ممتلكاتهنّ بالبيع أو بالشراء أو غيره. وإن استعملن وسطاء لذلك. ويبدو أن هذه الوساطة اقتصر استعمالها على نساء وبنات وأخوات الخلفاء اللّاتي حتمت عليهنّ الظروف الاجتماعية عدم التحرك بكل حرية بحكم الحجب الذي فرض عليهنّ، عكس القهرمانات اللّاتي كانت لديهنّ الحرية الكاملة في التنقل والخروج باستمرار.

وقد ساعد نساء العباسيين على امتلاك هذه الثروات وحرية التصرف فيها الخلفاء العباسيون أنفسهم، بالإضافة إلى ما أقرّه الإسلام للمرأة من حق الملكية، كما أعطاه حرية التصرف فيما تمتلك، وحقوقا أخرى حرمت منها في فترة ما قبل الإسلام، كحق الوصية والهبة وحق البيع والشراء والصدقة وحق المهر

<sup>1</sup> ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، بيروت، 2004، ص 1629.

<sup>2</sup> ابن مسكويه، تجارب الأمم، القاهرة، دت، ج 1، ص 164.

<sup>3</sup> الأصفهاني، الأغاني، بيروت، 2002، ج 10، ص 145.

<sup>4</sup> الجهشيارى، المصدر السابق، ص 165.

مقدمه ومؤخره، كما جاء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية<sup>1</sup>. وقد نتج عن ذلك بروز عدد من النساء العباسيات اللاتي ملكن الكثير من الأموال، وقد أنفقن قسما هاما منها على نفقتهن الخاصة كامتلاك الحلي والتجمل وخصصن قسما آخر للأعمال الخيرية.

## II - الأعمال الخيرية للنساء العباسيات

لقد كان الحریم في العصر العباسي على قدر كبير من الثراء مثلما سبق ذكره، وقد مكّنه هذا الثراء من أن ينفق على الكثير من الأعمال الخيرية والتي يمكن تصنيفها إلى صنفين اثنين: أولها المنشآت المعمارية، المدنية والدينية، وثانيها الصدقات. وقد أثرت هذه الأعمال تأثيرا كبيرا في المجتمع العباسي سواء في الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو العمرانية.

### I - المنشآت

تنوعت المنشآت التي بعثتها المرأة في العصر العباسي، سواء التي أمرت بإنشائها وأنفقت عليها، أو التي بنيت لها من قبل الخلفاء. ولعلّ اهتمام المرأة بإقامة بعض المنشآت، يرجع أساسا إلى ميل الخلفاء العباسيين إلى العمران الذي شمل البلاد في عهدهم من مدن وقصور ومساجد وغيره....

وتميزت منشآت المرأة في العصر العباسي، بأنها كانت في الغالب منشآت مائية مثلما تشير إلى ذلك كتب الجغرافيا والرحلة، هذا طبعا دون أن نغفل الاستراحات والحصون والمساجد. واندثرت هذه المنشآت في معظمها - عدا تلك التي تمّ الكشف عنها في درب زبيدة - ولم يبق إلا ما ذكرته المصادر التاريخية من وصف لها. كما شيّدت في الغالب خارج بغداد، ومعظمها في مكة أو في الطريق الرابط بين العراق ومكة. فهل كانت المرأة تشرف بنفسها على هذه المنشآت أما أنها كانت تستعين بوكلائها؟

قامت زبيدة بتنفيذ الكثير من المشاريع المائية في مكة، منها أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وقد كلفت بذلك وكيلها وأمرته بإيصال الماء إلى مكة مهما كلف الثمن، فاستدعى المهندسين والعمال وأخذوا بحطّ الجبال ونحت الصخور حتى أوصلوا الماء من الحجاز إلى مكة على بعد عشرة أميال، وقيل اثني عشر ميلا. واعتمدوا في ذلك على العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فكان جملة ما أنفق على حفرها حسب ما ورد ذكره في

<sup>1</sup> القرآن، سورة النساء، الآية 12؛ إبراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، بيروت، 2003، ص 254-255.

المصادر 700.000.000 دينار<sup>1</sup>. وحتى لو اعتبرنا أن هذا الرقم مبالغ فيه، فهو يدل على المشاق التي كان يعانيها أهل مكة للحصول على الماء، وعلى إدراك زبيدة لذلك. ومن الآبار التي نسبت إليها كذلك بئر الحسني، وهو بئر على ستة أميال من قرورى قرب معدن النقرة. ولم تكتف زبيدة بحفر العيون والآبار بل أمرت أيضا بإنشاء الكثير من البرك التي نسبت إليها بعد ذلك، كبركة في الغنابة على بعد ثلاثة أميال من الحسينية في طريق مكة، وهي بركة ماؤها "ملح غليظ". وتنسب إليها أيضا الفُتيعة وهي بركة بين الثعلبية والخزيمة بطريق مكة. كما نسبت إليها كذلك الزبيدية وهي بركة بين المُغيثة والغديب<sup>2</sup>.

وتسمى البرك مصانع وعلل الغاية من إنشائها أن تُغذى الدور في المناطق البعيدة نسبيا بالمياه، كما أشار المسعودي إلى ما أحدثته زبيدة من "بناء دور السبيل بمكة، واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة، وطريقها المعروفة إلى هذه الغاية، وما أحدثته من الدور للتسبيل، بالثغر الشامي وطرطوس، وما أوقفت على ذلك من الوقوف"<sup>3</sup>. وكانت هذه المرأة تتميز بكثرة منشأتها المائية: سبيل، عين ماء، بئر، إلخ...، كما أنها قامت بإنشاء الكثير من الاستراحات التي نسبت إليها والتي تحتوي على برك، أهمها يسمى المحدث، وهو منزل في طريق مكة وعلى ستة أميال منها، فيه مقر وقياب متفرقة وفيه بركة وآبار ماؤها عذب<sup>4</sup>. وقد ظلت آثار زبيدة المائية قائمة إلى عهد ابن جبير الذي ذكرها قائلا: "وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل، التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه انتدبت لذلك مدّة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وقد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق"<sup>5</sup>.

وهذه الطريق هي من جملة منشآت زبيدة التي كشفت عنها عمليات التنقيب الأثري، وهي تعرف بدرب زبيدة، وتطلق على الطريق الصحراوية التي تربط ما بين مكة والمدينة من جهة والمدن العراقية الكبرى من جهة ثانية، وتمتد على مسافة حوالي 1400 كم. وقد أسفرت عمليات الكشف الأثري التي أجريت فيها لإثبات ثمانية وستين محطة بالإضافة إلى العديد من الجدران الممتدة على طول الطريق المذكورة وعلى عدد من العلامات المحددة للطرق. كما كشفت عن

<sup>1</sup> المسعودي، المصدر المذكور، ج 4، ص 317؛ ابن خلكان، المصدر المذكور، ج 2، ص 314.

<sup>2</sup> الحموي، معجم البلدان، بيروت، 1980، ج 2، ص 261؛ ج 4، ص 159 و410؛ ج 5، ص 162.

<sup>3</sup> المسعودي، المصدر المذكور، ج 4، ص 316؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، 1930، ج 2، ص 84.

<sup>4</sup> الحموي، المصدر المذكور، ج 5، ص 60.

<sup>5</sup> ابن جبير، رحلة بن جبير، بيروت، 1959، ص 185.

أصناف عديدة من البناءات من مساجد وقصور ومجموعة من الدور الصغيرة، إلى جانب عدد وافر من البرك. أما في العراق فقد أسفرت عمليات التنقيب الأثري في درب زبيدة عن اكتشاف مجموعة من القلاع أو الحصون وهي تختلف عما عثر عليه في درب زبيدة في مكة<sup>1</sup>.

وقد تبين من خلال القصور المكتشفة في درب زبيدة، الاختلاف بينها وبين القصور الأموية في سوريا، ومدى تماثلها مع القصور العباسية لاسيما قصر الأخيضر وقصور الرقة<sup>2</sup> نفس الشيء بالنسبة للثلاث قلاع التي عثر عليها في درب زبيدة في العراق والتي أثبتت الأبحاث الأثرية أنها تعود إلى خلافة هارون الرشيد وأنه وقع تأسيسها ثلاث سنوات بعد إنشاء الأخيضر، أي في نفس الوقت الذي كانت فيه زبيدة تتفق على الانجازات المعمارية على طول درب زبيدة<sup>3</sup>. كما أشار ابن جبير إلى حصن المعشوق الواقع على شط دجلة قبالة سامراء والذي يقال أنه كان متفجراً لزبيدة<sup>4</sup>، ولعله أحد الحصون التي عثر عليها في درب زبيدة في العراق. ومن ثمة نلاحظ التطابق بين نتائج الاستكشاف الأثري وبين النصوص التاريخية، وهو ما يعطي قيمة أكبر لمنشآت زبيدة. كما ورد ذكر منشآت خاصة بزبيدة في بغداد، أهمها الزبيدية التي بين باب خراسان وبين شارع دار الرقيق، وكذلك التي أسفل مدينة السلام في الجانب الغربي<sup>5</sup>.

ومن هنا نتبين اهتمام زبيدة بالمشاريع العامة وكيف كان لها دور في ازدهار الحركة العمرانية العباسية سواء داخل بغداد أو خارجها. نلاحظ كذلك تعدد وتنوع مشاريعها المعمارية من المنشآت المائية: عيون، آبار برك إلى المنشآت العامة مثل الحصون والاستراحات، وهو ما تحدثت عنه المصادر وما أكدته نتائج البحث الأثري. وبالتالي فقد لعبت زبيدة دوراً خيرياً وعمرانياً هاماً. وكانت زبيدة تشرف على هذه الأعمال عن طريق وكلائها وقد حرصت على سرعة إنجازها، فهي أول من اتخذت الجمازات، فقد أمرت الرّحالين الذين يقودون الإبل أن يزيدوا في سير البُختية (الإبل الخراسانية)، فلما حركت مشيت ضروبا من المشي وضروبا من المرفوع، فجمزت في خلال ذلك<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> Keppel A. C. CRESWELL, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Aldershot, 1989, p. 280.

<sup>2</sup> *Ibid*, p. 282.

<sup>3</sup> *Ibid*, p. 284.

<sup>4</sup> ابن جبير، المصدر المذكور، ص 207.

<sup>5</sup> الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، القاهرة، 1931، ج 1، ص 89.

<sup>6</sup> التعالي، لطائف المعارف، دمشق، 1960، ص 44، والجمز ضرب من السير أشد من العنق وهو إسراع الدابة.



## مساهمة المرأة العباسية في الأعمال الخيرية

وسارت على خطى زبيدة السيّدة شجاع أم الخليفة المتوكل، لاسيما على مستوى سقاية أهل مكّة بالماء، ففي سنة 245 هـ/859 م تهدّمت القناة التي كانت قد حفرتها زبيدة بمكة فغارت عين مشاش، وارتفع ثمن قربة الماء حتى بلغ ثمانين درهما، فأمرت أم المتوكل بإصلاح القناة والإنفاق عليها<sup>1</sup>. كما امتازت خالصة جارية المهدي بعمارتها لطريق الحج من مكة إلى المدينة، فقد بنت هناك قرية عظيمة بها عيون جارية ومزارع سمّيت تربة<sup>2</sup>.

وهكذا عدا إمداد هذه المدينة المقدسة بالماء من أهم أعمال الخير، والذي يعدّ تواسلا لسلوك قديم متجذر في الثقافة العربية، يتمثل في السقاية<sup>3</sup>. وقد شارك الحريم في العصر العباسي الخليفة في هذا العمل الخيري، فأولين سقاية الحجيج عناية فائقة. ولم تقتصر السقاية على أهل مكة بل شملت كذلك أهل بغداد، فقد حفرت هيلانة وهي قيّمة للمنصور أي قهرمانه حوضا بالجانب الشرقي وسبلته، فنسب إليها حوض هيلانة، ويقال أن هيلانة هي جارية الرشيد وليس المنصور، ويبدو أن هذا القول هو الأصح لاسيما وأنه قد ورد في كتاب **العقد الفريد** لابن عبد ربه أن قيّمة المنصور كانت تدعى أم علي وليس هيلانة<sup>4</sup>.

كما اشتهرت السيّدة شغب أم الخليفة المقنن كذلك بالإنفاق على المنشآت المائية، وكان لها الفضل في استصلاح الحياض في طريق مكة، كما كانت تواظب على مصالح الحجاج وتبعث معهم خزانة الشراب والأطباء. ومن أعمالها الخيرية أيضا أنها أنشأت مارستانا في بغداد وعهدت إلى الطبيب سنان بن ثابت بإدارته، وقد بلغت النفقة على هذا المستشفى في كل شهر ستمائة دينار<sup>5</sup>. إذن شهد عصر السيّدة أم الخليفة المقنن تطورا في الأعمال الخيرية التي تقوم بها المرأة، والمتمثل في الاعتناء بالجانب الصحي.

أخيرا، ومما يدلّ على أن نساء الخلفاء العباسيين كان لهنّ دور في المساهمة في استصلاح منشآت الدولة، ما ذكره ابن حوقل من أن بعض نساء بني العباس ساهمن في شراء مراكب، حتى يحتلن على خور عظيم كان يبتلع السفن، إذ قال: "وكان على ركن الأبلّة في دجلة بين يدي نهرها خور عظيم الخطر، جسيم

<sup>1</sup> الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، بيروت، 1987، ج 10، ص 66.

<sup>2</sup> ابن خرداذبه، **المسالك والممالك**، بغداد، دت، ص 188.

<sup>3</sup> راضي دغفوس، **محمد ونشأة الإسلام**، تبر الزمان، 2006، ص 34.

<sup>4</sup> الخطيب البغدادي، **المصدر السابق**، ج 1، ص 97؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، القاهرة، 1965، ج 5، ص 115.

<sup>5</sup> ابن الجوزي، **المنتظم**، بيروت، 1992، ج 13، ص 321؛ ابن الجوزي، **أحكام النساء**، قطر، 1993، ص 450؛ مصطفى جواد، **المرجع المذكور**، ص 90.

الضرر، دائم الغرر، وكانت أكثر السفن تسلم من سائر الأماكن في البحر حتى ترده فيبتلعها وتغرق فيه، بعد أن تدور على وجه الماء أيّما وكان يعرف بكرداب الأبلّة وخورها، فاحتالت له بعض نساء بني العباس، بمرآكب اشترتها فأكثرت منها وأوسقتها بالحجارة العظام وبلّغتها ذلك المكان فابتلعها وقد توافقت على مقدار فانسد المكان وزال الضرر"<sup>1</sup>.

ولم تقتصر إسهامات نساء العباسيين على المجتمع المدني، بل اهتمن أيضا بالجانب الديني. إذ قامت الخيزران بتوسعة الحرم المكي<sup>2</sup>، وبنّت العباسة بنت أحمد بن طولون، عندما خرجت مشيعة لابنة أخيها قطر الندى إلى الخليفة المعتضد، قرية في آخر الديار المصرية من جهة الشام جعلت بها جامعا وسوقا، وقد سميت باسمها أي العباسة<sup>3</sup>. كما سميت بعض المقابر في بغداد باسم سيّدات عباسيات: واحدة باسم العباسة بنت المهدي وكانت قرب سوق السلاح وقد دفن فيها محمد بن إبراهيم الإمام، وأخرى باسم الخيزران<sup>4</sup>. ولعلّ تسمية هذه المقابر بأسماء سيّدات عباسيات يدلّ على أنهن قمن بتوقيف بعض الأراضي أو الضيعات التي كانت على ملكهن الخاص لدفن الموتى، فحملت تلك المقابر أسماءهنّ.

ومعلوم أن مقابر الخلفاء العباسيين قد تفرقت وتباعدت، وأن المنتصر أول خليفة عباسي أظهر قبره، وكان ذلك بطلب من أمه<sup>5</sup>. وقد أحيط بالقبر بناء مئمن الأضلاع مسقوف بقبة، يعرف اليوم بقبة الصليبية، وهو يقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، مقابل سامراء<sup>6</sup>. وهو أقدم تربة أو ضريح يظهر في الحضارة الإسلامية، وبذلك تكون أم المنتصر والتي تدعى حُبشية قد ساهمت بهذا الإنجاز في تحطيم ما هو محظور منذ فترة الرسول، ومهدت بالتالي لظهور عمارة الأضرحة التي ستعرف انتشارا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> ابن حوقل، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ص 237.

<sup>2</sup> العمري، مذهب الروضة الفيحاء، بغداد، 1966، ص 200.

<sup>3</sup> ابن خلكان، المصدر المذكور، ج 2، ص 250.

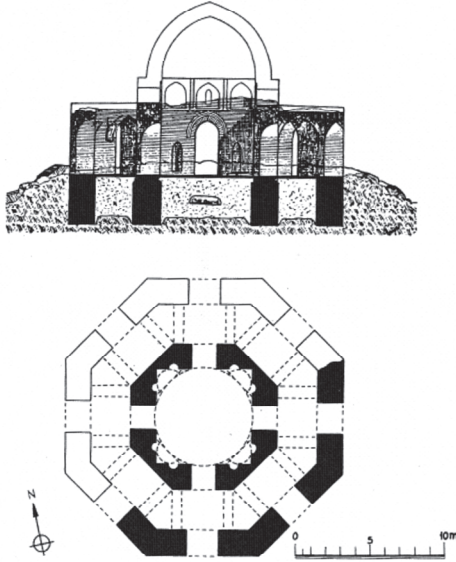
<sup>4</sup> الخطيب البغدادي، المصدر المذكور، ج 10، ص 410؛ صالح أحمد العلي، "الأسرة العباسية في بغداد"، سومر، ج 1 و 2، المجلد 31، 1975، ص 247.

<sup>5</sup> الطبري، المصدر المذكور، ج 10، ص 110.

<sup>6</sup> K. A. C. CRESWELL, *Op. cit.*, p. 373.

<sup>7</sup> E. WHELAN, « Islam des premiers siècles : La naissance des Modèles (622- 1050) », *Art Islamique et mécénat*, Trésors d'Art du Koweït, Institut du Monde Arabe, Paris, 1992, p. 49.

## قبة الصليبية



K. A. C. Creswell, *Op. cit.*, p. 372, fig 241.

وقد شيّد هذا الضريح ليضمّ قبر المنتصر عند وفاته سنة 248 هـ/862 م، ثم دُفن فيه معه كل من المعتز والمهتدي، وأسفرت عمليات التنقيب الأثري التي أجريت في هذا الضريح والتي أشرف عليها هرتزفالد في الكشف عن ثلاثة قبور، لذلك يرجح هرتزفالد أن قبة الصليبية استخدمت ضريحا لثلاث خلفاء<sup>1</sup>. وفي الطبري إشارة إلى أن المعتز دُفن مع المنتصر في ناحية قصر الصوامع<sup>2</sup>. وهو ما يؤيد ما افترضه هرتزفالد.

ولعلّ دراسة هذا المعلم له شأن هام في تاريخ العمارة، إذ يكشف عن الأثر الكبير الذي كان لهذا التجديد الذي قامت به حُبشية على التقاليد المعمارية اللاحقة، ممّا يؤكد لنا الحاجة لاستكشاف وتقصي دور الحرير في خلق تقاليد فنية

<sup>1</sup> K. A. C. CRESWELL, *Op. cit.*, p. 374.

<sup>2</sup> الطبري، المصدر المذكور، ج 10، ص 255.

إسلامية جديدة<sup>1</sup>. ذلك أن أهميته لا تكمن فقط في اعتماد الشكل المثلث الذي أصبح من التقاليد المعروفة في العمارة الإسلامية مثلما تدلّ على ذلك قبة الصخرة وحصن القادسية، وإنما في كونه يعدّ أقدم ضريح في الإسلام. كما يلفت الانتباه بتخطيطه المتقن وجودة بنائه، وتوفّرت فيه عناصر فنيّة مبكّرة في فنون العمارة الدينية الإسلامية.

نلاحظ غذا أن أغلب المنشآت التي قامت بها المرأة في العصر العباسي كانت من إنجاز نساء الخلفاء، وبالتالي ارتباطها بمؤسسة الخلافة. ونلاحظ أيضا أن هذه المنشآت كانت إما في مكة أو في بغداد: في مكة لما تكتسيه هذه المدينة من قدسية، وفي بغداد بوصفها عاصمة الخلافة، وهما صفتان تجعلان هاتين المدينتين بابا من أبواب الخير والصدقة.

وممّا لا شك فيه أن هذه المنشآت كانت بحاجة إلى كثير من الأموال والنفقات، وأن نساء الخلفاء العباسيين قد أنفقن عليها من أموالهنّ الخاصة، التي كنّ يخصّصن أو يحبسن قسما منها على المصالح الخيرية. ذلك أن المرأة حينها لم تكف فقط بالإنفاق على المشاريع العامة، بل كانت تساهم أيضا في الصدقات.

## (2) الصدقات

لم يقتصر دور نساء الخلفاء العباسيين على إنفاق أموالهن في المنشآت فقط بل تعدّاه إلى الأعمال الاجتماعية الخيرية من قبيل: إطعام المساكين، إعانة اليتامى، الخ... فقد قدر دخل الخيزران السنوي بـ 6.600.000.000 درهم تنفق في الصدقات وأبواب الخير<sup>2</sup>. وعندما حجّت سنة 172هـ/788 م، تصدّقت بأموال كثيرة، فقد قسّمت بالمدينة أموالا على الفقراء والمساكين، وأجازت بجوائز عظيمة على نفر من قریش والأنصار والأعيان، كما أنها خصّت كل قبيلة بمبالغ معينة من المال تستعين بها على أمور حياتها. ولم تكف بتوزيع الأموال فحسب بل سعت إلى تزويج الكثير من اليتامى، كما كست كسوة كثيرة وقسمت على نساء مكة أنية من ذهب وفضة مملوءة بأنواع الطيب<sup>3</sup>.

وشمل عطاؤها الرجال والنساء على حدّ سواء، المهاجرين والأنصار، الفقراء والأعيان، وقد يكون الهدف من هذه النفقات من جهة التقرب إلى هؤلاء عن طريق العطايا والهبات، ومن جهة أخرى الرفع من مكانتها الاجتماعية،

<sup>1</sup> E. WHELAN, « Islam des.. », *Op. cit.*, p. 49.

<sup>2</sup> ابن تغري بردي، المصدر المذكور، ج 2، ص 72.

<sup>3</sup> نفس المصدر، ج 2، ص 68؛ مؤلف مجهول، *العيون والحدائق*، بيروت، دت، ج 3، ص 291.

بحكم نشأتها المتواضعة. لذلك سعت إلى استمالة الصغير والكبير والقوي والضعيف ممن حولها، وقضاء حاجات قاصديها، والتصدق على الفقراء والمساكين، ومن ذلك نشأ حب الجميع لها، وهو ما أهلها للسيطرة والنفوذ السياسي والإثراء المادي.

ويبدو أن الأمر يختلف بالنسبة لزبيدة التي اشتهرت هي الأخرى بكثرة العطايا والصدقات التي تنفقها في مجالات الخير وعلى الفقراء والمساكين، وخاصة في مواسم الحج. فقد ذكر عنها أنها أنفقت في حجة لها أربعة وخمسين ألف دينار، وقيل أيضا أنها أنفقت في حجة واحدة ألفي ألف دينار<sup>1</sup>. ولا يتعلّق الأمر بالصدقات فقط، فهي نفسها كانت تسهم بمالها في الإنفاق على مجالات الدولة، مثل العلماء<sup>2</sup>، والأطباء إذ يذكر عنها أنها عيّنت للطبيب جبرائيل بن بختيشوع راتباً قدره خمسون ألف درهم سنوياً<sup>3</sup>. كما تشير المصادر إلى أنها كانت تجزل العطاء على الشعراء والأدباء، كوصلها الشاعر أبا العتاهية سنوياً من مال يدفعه إليها المأمون. ويذكر عنها أنها تأخرت مرة في إعطائه صلته منها، فشكا ذلك الأمر برقعة سلمها إلى كاتبها مسلم بن سعدان بها أبيات من الشعر، فأمرت بتعجيلها إليه<sup>4</sup>. ويبدو أنها كانت تدفع لجميع هؤلاء من نقود كانت تحمل اسمها، حيث نقش اسمها على بعض الدراهم، ويبدو أنها كانت من نقود الصلة التي كانت توزع كعطايا وهبات على المغنيين والشعراء والأدباء. وهي الوحيدة من زوجات وأمهات أولاد الخلفاء التي ضربت نقوداً باسمها، إذ ظهرت لها نقود في خلافة زوجها هارون الرشيد وخلافة ابنها محمد الأمين، وكلها دراهم فضية نقش عليها "أم جعفر" و"أم الخليفة"، و"السيدة أم الخليفة" و"السيدة أم جعفر"<sup>5</sup>. وبذلك تكون زبيدة قد شاركت الخليفة أحد رموز السيادة وهي النقود، فخلقت بذلك شخصية نسائية رمزية، أكّدت بها نفوذها الكبير وعطاءها الوفير، وذوقها الرفيع.

<sup>1</sup> ابن الجوزي، أحكام النساء، ص 449؛ ابن تغري بردي، المصدر المذكور، ج 2، ص 214.

<sup>2</sup> ابن الجوزي، نفس المصدر، ص 449.

<sup>3</sup> ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، 1956، ج 1، ص 58.

<sup>4</sup> ابن طيفور، كتاب بغداد، القاهرة، 1949، ص 160-161.

<sup>5</sup> سمير شما، "مسكوكات السيدة زبيدة"، اليرموك للمسكوكات، المجلد الثالث، عدد 1، سنة

1991، ص 13-33.

دراهم عباسية تحمل اسم زبيدة



سمير شما، المرجع المذكور، (اللوحة عدد 2)

وما من شك في أن قيام زبيدة بتمويل النشاط الأدبي من شأنه أن ينعكس على شخصيتها، ويمكنها من الاتصال بالمجتمع العباسي ومعرفته من خلال هؤلاء الشعراء والأدباء وغيرهم، إذ كان الشعراء في ذلك العهد، حملة ونقلة للأخبار التي ترد على مسامعهم من كل حذب وصوب.

علاوة على ذلك فإن زبيدة هاشمية عباسية، وليس في بنات هاشم عباسية ولدت خليفة إلا هي، فهي ذات نسب مرموق. ينقل الثعالبي عن أبي العيناء أن زبيدة "لو نشرت صفائرها ما تعلقت إلا بخليفة أو ولي عهد، فإن المنصور جدّها، والسفاح أخو جدّها، والمهدي عمّها، والرشيد زوجها، والأمين ابنها، والمأمون والمعتصم ابنا زوجها، والوائق والمتوكل ابنا ابن زوجها. وأما ولاة العهود فكثيرة"<sup>1</sup>. فإن زبيدة بحكم قرابتها بهؤلاء الخلفاء كانت عميقة النسب أصيلته من جهة والدها على الأقل.

ومن البديهي أن نسب زبيدة يوفّر لها كامراً شريفة الاحترام والتقدير ويؤهلها لتحلّ مكانة هامة في مجتمعها. كما يوفر لها من الناحية النفسية الشعور بنوع من العزة والقوة والحصانة، التي تعوضها عن مشاركة الجوّاري لها زوجها. فقد ظلّ تقليد النسب قويا في المجتمع العباسي بالرغم من التطورات التي عرفها هذا المجتمع، الذي شهد تدفق أعداد كبيرة من القيان من مختلف الأجناس اللاتي وصل تأثيرهنّ إلى الخلفاء، ولا أدلّ على ذلك من حرص الخلفاء العباسيين على النسب فيما يتعلق بمسألة الزواج<sup>2</sup>. لقد جمعت زبيدة بين النسب والثراء، وهو ما أهلها للسيطرة والنفوذ، كما فسح لها المجال لتدعيم موقعها ضمن العلاقات الاجتماعية القائمة.

<sup>1</sup> السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت، دت، ص 241.

<sup>2</sup> أسماء عمارة، "المرأة والشرف: حريم البلاط العباسي نموذجا (132 هـ/ 749 م - 247 هـ/ 861 م"، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، 2007، ص 114.

ويشبه دور زبيدة ومكانتها في المجتمع العباسي، الدور الذي لعبته خديجة في المجتمع المكي، فقد كانت هي الأخرى ذات نسب مرموق ومال وفير، ينفق بشكل خاص في الأعمال الاجتماعية الخيرية، كإطعام المساكين وإعانة اليتامى، إلخ...<sup>1</sup>، فلا مبالغة والأمر كذلك أن نمثلها بخديجة على الأقل في هذا المجال.

فالإنفاق على الأعمال الخيرية هو إذن من العادات العربية القديمة التي دأبت عليها المرأة الشريفة منذ فترة ما قبل الإسلام. ولا يتعلق الأمر بالحرائر فقط، فالحظايا أنفسهن في العصر العباسي كنّ يساهمن بمالهن في الأعمال الخيرية، ويبقى نموذج الخيزران خير دليل على ذلك، لكنّ الاختلاف يكمن على مستوى الغايات والأهداف.

ومما لا شكّ فيه أيضا أن الثراء في صلب الحريم العباسي أفرز أرسنقراطية نسائية من طبقة الجوّاري، لاسيما أمهات الأولاد والقهرمانات، ومكّن هذا الثراء من بروز نساء على حساب أخريات، وأهلّهنّ للسيطرة والنفوذ السياسي والمادي. وبرز ذلك خصوصا في العصر العباسي الثاني حيث بدأت تتضح أهمية العنصر المالي في العلاقات الاجتماعية، وبرزت مجموعة من النساء أنفقن الكثير في وجوه الخير. وممن عرف عنهن ذلك السيّدة شجاع أم الخليفة المتوكل التي أنفقت الكثير أثناء ذهابها إلى الحج على أهل الكوفة، إذ أمرت لكلّ رجل من العباسيين والطلبين بألف درهم ولأبناء المهاجرين بخمس مائة درهم ولكلّ امرأة من الهاشميات خمس مائة درهم، ولكلّ امرأة من المهاجرين بعشرة دنانير<sup>2</sup>. ولعلّ نفقة أم المتوكل على الهاشميين نساء ورجالا والطلبين والمهاجرين إنما قصدت من ورائها أن تجذب هؤلاء لما امتازوا به من سابقة في الإسلام وصحبة ودور وقيمة شخصية ونسب (آل البيت)، حيث تبرز نفقتها فروقا واضحة بين العباسيين والطلبين من جهة وبين المهاجرين من جهة أخرى. فدعمها لهؤلاء لم يقتصر على الجانب المادي بل شمل أيضا الجانب الأيديولوجي المعنوي.

وكانت السيّدة شغب هي المسيطرة على أمور الدولة في عهد ولدها المقنن، وكانت ذات ثروة طائلة تتصدق بأكثرها، وكانت تواظب على مصالح الحجاج وتبعث خزانة الشراب والأطباء معهم<sup>3</sup>. كما ساهمت بأموالها في إنقاذ الخلافة، حيث قدّمت سنة 218 هـ/ 833 م مقدار ستمائة ألف دينار مساعدة منها لصدّ

<sup>1</sup> سلوى بالحاج صالح - العايب، "دثرتني... يا خديجة". دراسة تحليلية لشخصية خديجة بنت خويلد، بيروت، 1999، ص 93.

<sup>2</sup> ابن الجوزي، أحكام النساء، ص 451.

<sup>3</sup> نفس المصدر، ص 451.

جيش أبي طاهر القرمطي عن بغداد<sup>1</sup>. فلم يكن الحريم دائما سببا في تراجع وضعف سلطة الخلفاء في العصر العباسي الثاني<sup>2</sup>. لكن ما من شك في أن تدهور الظروف السياسية والأمنية في ذلك العصر قد ساعد بعض النساء على احتلال الموقع الذي احتلته.

لذلك كان الثراء يعوض النسب في كثير من الأحيان، لكن دون أن يعني ذلك نفيا لظهور تمايزات اجتماعية بين الحرائر والإماء، نجد إشارة واضحة إليها في أمور الزواج والطلاق والمهر والوفاة. فالثراء على الأقل فيما يتعلق بالحريم لم يكن على درجة من التطور تجعله يطمس النسب، أو يطغى عليه فيوحد الحريم ضمن تركيبة واحدة يتحدد موقع المرأة فيها حسب ثروتها.

نلاحظ أن الحريم في العصر العباسي قمن بدور لا بأس به في مجال الأعمال الخيرية والإنفاق عليها، وما النماذج التي قدمناها إلا دليل على ذلك. وبذل هذا على وعي المرأة العباسية بأحوال دولتها الاجتماعية، وذلك رغم ما نعرفه عن المجتمع العباسي الذي كان مجتمعا ذكوريا خضعت فيه المرأة بصورة عامة لسلطة الرجل. لذلك من المنطقي أن يتساءل المرء كيف تحولت المرأة إلى عنصر فاعل في الحياة الاجتماعية في مثل هذا المجتمع الذكوري الذي لا يساعد على نماء شخصية المرأة وبروزها، والذي تعرضت فيه المرأة إلى ظاهرة الحجب أو العزل؟

يمكن القول أن المرأة في العصر العباسي استطاعت أن تحتفظ بمكانتها رغم ما فرض عليها من حجب، وكون العنصر الذكوري هو المسيطر في المجتمع العباسي لا يعني عدم إمكانية بروز عناصر من الجنس المقابل في ميدان من الميادين بما في ذلك الأعمال الخيرية لاسيما المنشآت، سواء تعلق الأمر بامرأة شريفة أو أمة، ولو أنه من المفروض أن يكون للإماء في الحرم وضع خاص متميز عن وضعيات سائر نساء الحرم يجعلهن أكثر تحررا. فالرجال لم يكونوا دائما قوامين على النساء. ثم إن نساء الخلفاء كن ذوات ثروات طائلة، وهو عامل له وزنه يدعم مركز صاحبه ويقويه داخل مجتمع البلاط حتى لو كانت من الجنس الأنثوي، ويوفر لها من حرية التصرف ما لا يتوفر لغيرها من بني جنسها ممن هنّ في مرتبة اجتماعية أقل داخل نفس الحرم. إن هذه الثروة كفيلة بأن تدفع بالبعض من نساء العباسيين نحو الاهتمام بالأعمال الخيرية، دون أن يثير ذلك أي إشكال في أسرهنّ وفي المجتمع العباسي عامة، بل الواضح من خلال الأمثلة التي قدمناها أنهنّ كنّ تحظين بالاحترام والتقدير.

<sup>1</sup> القاضي الرشيد، المصدر المذكور، ص 238.

<sup>2</sup> H. KENNEDY, *Op. cit.*, p. 198.



## خاتمة

إن المرأة العباسية - التي حاولنا أن نبرز دورها في هذه الدراسة - هي غير المرأة العباسية التي تذكرها كتب الأدب وبعض الدراسات الحديثة: سرية أو زوجة أو أم ولد إلخ... فإذا ما نظرنا إليها خارج حدود القصر، تَبَدَّى لنا أهم مآ ذكر عنها، إذ تبدو على استعداد لإنفاق مالها من أجل الصالح العام، وتعمير دولتها عن طريق بعض المنشآت التي قامت بها، وكانت هذه المنشآت في سبيل الخير. وقد تمتعت المرأة بالنفقة على هذه المشاريع أو على شؤونها الخاصة. لكن ذلك ينطبق بالأساس على نساء الخاصة. فالأعمال الخيرية التي اقترنت أسماؤها ببعض النساء كانت فقط حكرا على سيّدات القصور، أي الحرّيم وخاصة زوجات وأمّهات أولاد الخلفاء اللآتي استطعن أن يُكوّن قاعدة مالية هامة أنفقن منها في الأعمال الخيرية.

إن اهتمام سيّدات القصر بالأعمال الخيرية كان له دور في تكوين شخصيتهنّ، فقد وصلهنّ بالمجتمع، ومكّنهنّ من الإطلاع على أخبار الناس وأحوال الدولة العباسية، علاوة على ما توفر لهنّ من استقلالية مادية وقدرة على اتخاذ القرار. فلم تكن المرأة العباسية من خلال تمسكها بالأموال والضياع لتتصرف بمنطق الأنانية والنزوع إلى الإثراء، بل إنّها استغلّت ثروتها في جوانب إيجابية: الانفتاح، الصلة بالناس، المحاسن، روح التغيير، إلخ... لتدعم الخلافة العباسية ماديا ومعنويا. لكن هذا لا يفي وجود بعض الحالات الاستثنائية، مثال السيّدة قبيحة زوجة الخليفة المتوكل، التي عرّضت ولدها المعزّز للقتل وهي تملك من الأموال والجواهر ما لا يُحصى ولا يعدّ!

أسهمت المنشآت التي قامت بها المرأة بدور كبير في المجتمع العباسي سواء في الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية، وكان لها أثرها على الجانب المعماري، فقد كانت مؤسسة لعمارة الضريح، التي ستلعب دورا هاما في الثقافة العربية الإسلامية، ومكّنت من تطوير الفن الإسلامي في العهد العباسي. كما خلقت المنشآت المعمارية التي وقع الكشف عنها في درب زبيدة شخصية نسائية على مستوى العمارة بالإضافة إلى النقود. أما صدقات الحرّيم فقد أسهمت في ترسيخ القواعد الأساسية التي ستبني عليها مؤسسة الأوقاف التي ستشهد اتساعا كبيرا في العهد العثماني، وستصبح شاهدا على الحضارة العثمانية. وفي النهاية فقد أبرزت لنا هذه النماذج التي تحدثنا عنها أن دور المرأة في العصر العباسي قد تجاوز حدود القصر والعصر.

<sup>1</sup> السيوطي، المصدر المذكور، ص 262.